يا عاذرا لامرئ

ياعـــــاذرا لإمرئ قد هام في الحضر ... وعـــــــاذلا لمحب البدو والقفر

لا تذمـــمن بيوتا خـــــف محملها ... وتمـــــدحن بيوت الطين والحجر

لوكنـــت تدري ما في البدو تعذرني ... لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

أوكنت أصبحت في الصـحراء مرتقبا ... بســـــاط رمل به الحصباء كالدرر

أو جـلت في روضة قد راق منظرها ... بكـــــل لون جميل شيـــــق عطر

تستنـــــــشقن نسيما طاب منتشـقا ... يزيـــــد في الروح لم يمر على قذر

أوكـــــنت في صبح ليل هاج هاتنه ... علوت في مـــــرقب أوجلت بالنـظر

رأيت في كـــــل وجه من بسائطها ... سربا من الوحـش يرعى أطيب الثمر

فيا لها من وقفــة لم تبق على حزن ... في قلب مضنى ولا كــد الذي ضجر

نبـــــاكر الصيد أحيانا فـــــنبغته ... فالصيد منـــــا مدى الأوقات في ذعر

فـــــــكم ظلمنا ظليما في نعامته ... وان يكن طائـــــرا في الجو كالصقر

يوم الرحـــــيل إذا شدت هوادجنا ... شقائق عمـــــــــها مزن من المطر

فيها العذاري وفيها قد جعلن كوي ... مرقـــــــــــعات بأحداق من الحـور

تمشـــي الحداة لها من خلفها زجل ... أشهى من الناي والسنـــــطير والوتر

ونحـــن فـوق جياد الخيل تركضها ... شليلـــــــها زينة الاكـــــفال والخصر

نطارد الوحش والغـــزلان تلحقها ... على البعاد ومـــــا تنجو من الضـمر

نروح للحـــــــــيليلا بعدمـــا نزلوا ... منازلا ما بـــــــتتها لطخ من الوضر

ترابـــها المسك بل أنقى وجاد بها ... صـــــــوب الغمائم بالأصال والبكر

تلقى الخـيام وقد صفت بها فغدت ... مثل الســـــــماء زهت بالأنجم الزهر

قال الألى قد مضـــوا قولا يصدقه ... نقل وعقل وما للـــــــــحق من غير

الحســـــن يظهر في بيتين رونقه ... بيت من الشـــــعر وبيت من الشـعر

أنعامـــــنا ان أنت عند العشي تخل ... أصواتـــــــــها كدوي الرعد بالسحر

سفائـــــــن البيريل انجي لراكبها ... سفائن الـــــــــبحر كم فيها من خطر

لنا المـــــهاري وما للريم سرعتها ... بـــــــها وبالخيل نلنا كل مفتخر

فخيلنا دائـــــــــما للحرب مسرجة ... مـــــن استغاث بنا بشره بالظفر

نحن الـــــــملوك لا تعدل بنا أحدا ... وأي عيـــــش لمن بات في خفر

لا نحـــــمل الضيم ممن جار نتركه ... وأرضـــــه وجميع العز في السفر

وان أســـــــاء علينا الجار عشرته ... تبـــــــين عنه بلا ضر ولا ضرر

نبيـــــــت نار القرى تبدو لطارقنا ... فيها المداواة من جوع ومن خصر

شرابـــــــــها من حليب ما يخالطه ... مـــــاء وليس حليب النوق كالبقر

أمـــــــــــوال أعدائنا كل أونة ... تقـــضي بقسمتها بالعدل والقدر

مـــــا في البداوة من عيب تذم به ... إلا المـــــــروءة والإحسان بالبدر

وصـــــــحة الجسم فيها غير خافية ... والعيب والداء مقصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى ... فنـــــحن أطول خلق الله في العمر

1. لمحة عن الأمير عبد القادر:

الأمير عبد القادر بن محي الدين المعروف بـ **عبد القادر الجزائري** ولد في قرية القيطنة قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم الثلاثاء 6 سبتمبر 1808 الموافق لـ 15 رجب 1223 هـ هو قائد سياسي وعسكري مجاهد عرف بمحاربته للاحتلال الفرنسي للجزائر، قاد مقاومة شعبية لخمسة عشر عاما أثناء بدايات غزو فرنسا للجزائر، يعتبر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي، نفي إلى دمشق حيث تفرغ للتصوف والفلسفة والكتابة والشعر وتوفي فيها يوم 26 مايو.1883

كان تعليمه الديني صوفياً سنياً، أجاد القراءة والكتابة وهو في سن الخامسة، كما نال الإجازة في تفسير القرآن والحديث النبوي وهو في الثانية عشرة من عمره ليحمل سنتين بعد ذلك لقب حافظ وبدأ بإلقاء الدروس في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية، وقد شجعه والده على الفروسية وركوب الخيل ،ومقارعة الأنداد والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك فأظهر تفوقا مدهشا.

بعثه والده إلى وهران لطلب العلم من علمائها، حضر دروس الشيخ أحمد بن الخوجة فازداد تعمقا في الفقه كما طالع كتب الفلاسفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو وقد دامت هذه الرحلة العلمية ما يقرب من

السنتين (1239-1237 هـ) (1823-1821 م، بعد عودته إلى بلدة القيطنة وكان قد بلغ الخامسة عشر بادر والده إلى تزويجه واختار ابنة عمه **لالة خيرة** زوجة له فهي تجمع بين محاسن الخلق والنسب الشريف.

تلقى مجموعة أخرى من العلوم فقد درس الفلسفة) رسائل إخوان الصفا- أرسطوطاليس - فيثاغورس (ودرس الفقه والحديث فدرس صحيح البخاري وصحيح مسلم، وقام بتدريسهما، كما تلقى الألفية في النحو والسنوسية والعقائد النسفية في التوحيد، وايساغوجي في المنطق، والإتقان في علوم القرآن، وبهذا اكتمل للأمير العلم الشرعي، والعلم العقلي، والرحلة والمشاهدة.

مؤلفات الأمير عبد القادر

- له مؤلفات وأقوال كبيرة في الشعر تبرز إبداعه ورقة إحساسه مع زوجه في دمشق ومكانته الأدبية والروحية.
- له أيضا كتاب **المواقف.**
- كتاب **السيرة الذاتية** لعبد القادر بن محي الدين كتبه في الأسر في 1849.
- **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل** في بروسة (تركيا) أثناء إقامته بها عبارة عن «رسالة إلى الفرنسيين»، وهو كتاب موجه لأعضاء المجمع الآسيوي بطلب من الجمعية، وذلك بعد أن منحه هذا المجمع العلمي الفرنسي قبل ذلك بقليل العضوية فيه. وكان تاريخ تأليف الرسالة في 14 رمضان 1271 / 1855 م، ثم ترجمها الفرنسي «قوستاف دوقا» إلى الفرنسية في عام 1858 م وهو القنصل الفرنسي بدمشق آنذاك. يحتوي الكتاب على ثلاثة أبواب (في فضل العلم والعلماء) وبه تعريف العقل وتكملة وتنبيه وخاتمة، و (في إثبات العلم الشرعي) يتحدث فيه عن إثبات النبوة واحتياج كافة العقلاء إلى علوم الأنبياء. وفصل ثالث (في فضل الكتابة.([22]
- **المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام بالباطل والإلحاد** وهو كتاب رائع للامير عبد القادر الجزائري يبرز الأمير فلسفته في الحياة ونظرته في شتى المجلات والميادين.

2.تحليل القصيدة:

تجسد القصيدة موقفا متباينا يعكس ثنائية: **البدو والحضر،** فقد عبّر الأمير عبد القادر الجزائري في قصر " أمبواز" بفرنسا، لمّا تناهت إليه وفي حضرته، مناظرة بين مثقفين يفضل أحدهم الحياة البدوية ورومانسيتها، بينما يفضّل الآخر حياة المدن وبرجوازيتها وعلى عادة العربي ينتصر الشاعر للبداوة التي نسجت خصال العربي، وأملت عليه قيمه الخلقية والخلفية، فالإطار العام للنص، يأخذ فاعليته من هذا الموقف الذي تتقابل فيه حضارتان : **حضارة شرقية** حافلة بالمروءة والشهامة، والعدل، والانشراح، وحضارة

عامرة بالكبرياء والهيمنة والقهر. وليست المسألة إذن، مسألة بدو وحضر، كما نتوهم سريعا ونحن نتناول النص. إنّما يمتد الموقف بعيدا في أغوار الصراع بين حضارتين والفارق بينهما في هذا المقام، فارق جمالي في مظهره، سياسي/ حضاري في خطابه العميق.

الحقول الدلالية القصيدة :

تنوّعت الحقول الدلالية بالقصيدة ويمكن إجمالها فيمايلي:

- حقل العتاب واللوم :

يستهلّ الشاعر قصيدته بتوجيه لوم وعتاب لأولئك الذين ينتصرون لأهل الحواضر ويلومون سكان البوادي لبساطة عيشهم، فلامناص أن هذا الحكم مردّه الجهل بحياة البادية وفضائها ومزاياها، ومن تلك المفردات النابضة بالصدق وحرارة الشعور: **يا عاذراء وعادلا، تدري، جبلت، ضرر)**

وكأنّه يتوجه مخاطبا: ماذا بقي من عيب تذمّ به البادية وأهلها(**مروءة عالية، وأخلاق سامية، وشجاعة وكرم، وصحة الأجسام وصفاء العقول، وحرية وكبرياء شامخين)**.

- حـــــقل الطبيـعة :

ينقلنا الشاعر في سياق وصفه للبادية إلى لوحات فنية و طبيعية رائعة أبدعها الخالق العظيم، فتنقّل بفنية عالية من وصف الصحراء إلى الحدائق الغناء المتّسمة بالهواء المنعش الساري للنفوس الباعث للجد والنشاط... ومن تلك المفردات التي خدمت المعنى العام **(روضة، الصحراء، بسائط المطر، السماء الرعد، الأنجم، الشجر)**،

فالشاعر بذكره لهذه المظاهر الطبيعية: فإنّه يُعطي انطباعا للمتلقي خاصة، ولأولئك الذين يناصرون فكرة العيش بالمدن أنّ هذا التنوع لا يمكن أن يكون بالمدينة، بل العكس تماما فهوما يضفي جمالية على صورة البادية، و يعطي لسكانها صحة بالجسم وصفاء في القلب ورومانسية في المشاعر .

- حقل الحيوانات :

لقد أدرج فيه الشاعر مجموعة من المفردات عن الحيوانات التي تعجّ بها البوادي في المناطق التي تقع شمال الجزائر وجنوبها مذكّرا بخصائص هذه الحيوانات، فعلى سبيل المثال يقارن الشاعر بين حليب النوق والبقر، ويبين حقيقة أنّ حليب النوق أفضل للأجسام لما فيه من منافع، وغيرها من الرؤى التي تحيلنا إلى فكرة أنّ الشاعر استلهم هذه الصور

من تجاربه الحياتية، ثم إنّه يستطرد في ذكر العلاقة الحميمية بين الانسان والحصان لأنه مشبع بفكرة أن الخيل معقود بنواصيها الخير (**كالصقر والخيل والنعامة والعاديات والانعام والمهاري والريم والبقر**).

ـ حفل الصفات الحميدة:

القصيدة نابعة أصلا من خصوصيات الانسان الجزائري وفيها ردّ لمن يصف الجزائريين باللاّتحضر، فهو يرسل رسائل مشفرة بأنه يفتخر كونه بدوي الأصل والتنشئة ويقدم وصفا حقيقيا دون مبالغة عن شخصية الجزائري، فالشاعر يقدّم أمثلة جمّة بالقصيدة عن صفات أهل البوادي في حلّهم و ترحالهم في حالة السلم والحرب ، فيذكر أنهم يعاملون الجار بالحسنى، وأنّهم لا يردّون الإساءة بالإساءة فشيمهم لا ترضى بذلك، فهم أقدر على ردها ولكنهم يعاملون الإساءة بالحسنى، بيد أنهم من طلب يد المساعدة منهم وقت الضيم فإنّهم أسود الوغى لأنّهم شربوا من لبن الصمود والوقوف لنصرة المظلوم (**المروءة، الاحسان، الفخر، الاصالة**).

تمكّن الأمير الشاعر من أن يقدم نموذجا من المقارنة بين عيش البوادي وعيش الحواضر، مبديا رأيه في السجال الفكري الذي استشير فيه لكن بفطنة الأمير وحنكة المجرب و ما أملته عليه التجارب الشخصية، يوضح الأمير ما وراء المقارنة البسيطة التي تضفيها الصورة الجمالية للبادية صورة أكثر دلالة وعمقا تمثلت في قضية التحضر، وخاصة ان القصيدة كتبت في مرحلة مأساوية من تاريخ الجزائر اذ كان ينظر إلى الجزائريين من قبل المستعمر أنهم همچيون غير متحضرين متعجرفون، فكانت القصيدة من بدايتها إلى نهايتها مثالا يحتذي لإقامة الحجة على أن البادية مكان للرفعة والسؤدد والجمال ومرتع الشجعان والكرماء الذين كانوا يوما صناديد في ساحات الوغى، وقد استعمل الشاعر كل تجربته الشعرية باستعمال كلمات بسيطة لكنها صادقة وعميقة لتزيد الدال مدلولا إضافيا جميلا وجليلا.

ينتصر الأمير عبد القادر للبادية بحكم أنه قضي ريعان شبابه بين أحضانها وينتصر لأنها أرض أهله وعائلته فلا يمكن على أي حال من الأحوال أن يخون مرتع شبابه وموطن الآباء والأجداد، والشاعر كأنه يرسل إيحاءات للآخر أنه مهما تغيرت بي الاقامات والأماكن فلن أحيد قيدا نملة عن أرضي، والبادية بالنسبة إليه أيضا أولئك الذين ناصروه وآزروه ضد الاحتلال الفرنسي ووقفوا معه وقفه رجل واحد يخوضون المعارك تلو المعارك نصرة للدين وحبا في الوطن، فلا مناص أن ينتصر الشاعر للبادية، و يوضح موقفه من السؤال ليظهر مسالة الحضارة العربية الإسلامية تلك الحضارة التي جعلت من العربي الذي يُعرف بالغلظة والفضاضة تجاوزا ولو في نظر الغرب شخصية عامرة بالمروءة والشهامة والعدل بفضل تعاليم الإسلام السمحة، وانه من خلال المقارنة بين البادية

والحضر يمكن للمتلقي أن يتموقع أو ينسج سياقا لغويا أو فكريا أو حضاري من المنطلق العام للقصيدة لابد أن تذكر في الأخير أن الشاعر اعتمد على صور البيان والبديع مما زاد من جمالية النص الشعري من خلال استعمال الكنايات والاستعارات وألوان البديع كالطباق ويمكن إلمال ذلك في النقاط التالية :

- توظيف الأفعال الماضية بشكل ملفت للانتباه مع الجمع بين الماضية والمضارعة حسب سياق القصيدة.

- إستعمال جملة من العناصر اللغوية كالحروف والجمل والجمع بين تنكير الكلمات وتعريفها.

- إستعمال المحسن اللفظي كالطباق مثل تذم وتمدح باستعمال نون التوكيد الثقيلة والجناس عادلا وعاذرا والوان البيان، مثلا قوله يزيد في الروح في اشارة الى نقاء الهواء بالبادية وهي امثلة تعج بها القصيدة أردنا أن نشير لبعض منها .